هرم تمدن الشرق وشباب تمدن الغرب

اذا حلّقتَ في سماء الخيال واشرفت على الشرق والغرب فهو لك الشرق بصورة رجل شيخ حنى قناتهُ « الزمان » واصبح خائر القوى لا يسير الاَّ بعكازةٍ يعتمد عليها خوفاً من السقوط . اما الغرب فيتجلى لك بصورة رجل شاب غض الإهاب جديد القوى معتدل القامة جل همهِ اظهار قواهُ الادبية والعقلية لمن يحيط بهِ دلالةً على ما فيهِ من النشاط والسعي

كان الشرق يوماً شاباً كما يرى الغربُ في هذا اليوم الاَّ ان سير التمدن على توالي السنين قضى عليهِ ان يشيخ فيبلغ هذه الدرجة من الضعف والعجز . واذا فكرت في التمدن رأيت نورهُ لم ينقطع في عصرٍ من العصور فهو يشعّ تارة في صقع وطوراً في بلد مرة في الشمال واخرى في الجنوب حيناً في الشرق ووقتاً في الغرب . ألم تتذكر حضارة الامم الخالية حضارة البابليين والمصريين والاسرائيليين والاشوريين والكلدانيين والبابليين والفينيقيين واليونان والروم والعرب وما انتج كل قوم من العلم والصناعة والادب والسياسة والتدبير ؟ كل ذلك جاء شيئاً بعد شيء وفي وقتهِ حتى اتصل بعمران اهل الغرب فاصبح اليوم جباراً عنيداً عبل الذراعين جمّ القوى يستضعف من حواليهِ و يستنزلهم في الميدان

ثم ان حضارة هذا العصر قد تبدلت كل التبدّل منذ القرن التاسع عشر واصبح فيهِ قوم الغرب غير ما كانوا عليهِ سابقاً . انظر الى دعاتهم وسيّاحهم ورحّالهم وتجارهم وعلمائهم وعمالهم وصناعهم وساستهم تجدهم يجوبون البلاد ويعملون عملاً واحداً وهو تهذيب الامم وسوقهم الى مصدر الخير الاعظم والسعادة القصوى . واما قوتهم الحربية فهم لا يتخذونها الاَّ اذا الجأتهم الضرورة اليها أو لم يبقَ في قوس الصبر منزع وحينئذٍ يتصرفون بها ليثبتوا الامن والراحة على اسس متينة او على دعائم مكينة . وهم يحكمون عقد عراها بواسطة تحالف او تعاهد يجمعون بهِ بين دولةٍ ودولةٍ . ولهذا قلّت في ازماننا الفتوحات والغزوات والحروب بينما كانت في العصور السابقة آخذة بعضها ببعضٍ في جميع بلاد الله لا تنقطع سنة من السنين

اصبح الغرب في هذا اليوم سيد حيث الى الحضارة بفضل الخطة الجديدة التي اتخذها لنشر انوار افكارهِ وبث خواطرهِ ومساعيهِ ألا تراهُ قد ترك على جانب ذرائع الظلم والغشم وتمسك باصول ثابتة الاركان قائمة على اعطاء كل ذي حق حقهُ ؟ ألم يظهر لكل ذي عينين ان ابناء الغرب لا يتذرعون الاَّ بذرائع الادب واللطف لا بذرائع الفتك

والعنف . ألم يظهر للجميع ان علمهم أرق من علمنا وصناعتهم اسرع نتاجاً من صناعتنا وعمالهم اوفى ذمة من عمالنا ورؤساهم اشفق بمرؤوسيهم من رؤسائنا وحساباتهم اضبط من حساباتنا ؟ ألم ينفوا من قلوب العقلاء الضغائن والاحقاد المتولدة من القهر والجبر اللذين كان يلجأ اليهما ذوو الطمع او اليأس او الشدة

نعم ان الغربيين بلغوا في عهد قصير ما لم نبلغهُ الاَّ في عصور متطاولة . اصبح اليوم هؤلاء الذين كنَّا نسميهم عفوجاً او اعاجم او متوحشين او برابرة من اول الامم وفي مقدمتهم وذلك باتفاق الاقوال واجماع الآراء

وكأن عمال الافرنج لم يكتفوا بما وصلوا اليهِ من علو المرتبة فوق الشرقيين فاخذوا يسعون اليوم في تمكين تفوقهم عليهم لكي لا يرجع الشرق الى سابق عزهِ وسامق مجدهِ ويبقى الغرب هو المجلي في هذا الميدان او هو الغالب في هذه الحرب الضروس . ولهذا تراهم دائبين في وصل العلم بالعمل سعياً وراء تحقيق امانيهم لكي لا يخسروا ما اكتسبوهُ بجدهم وكدهم في تلك المدة

ان هذا النوع من تنازع البقاء حملي السير لكنهُ لا يقعد اصحابهُ عن اتمام الطريق التي اخذوا بها . كما لا يلهيهم فوزهم الباهر عن التخطي الى الامام بتدبير ما نالوهُ سابقاً من علو المقام كما فعل من سبقهم من اولئك الاقوام الذين اعتمدوا على نصرهم المبين الاول فلم يريدوا بعدُ ان يجاهدوا طالما هم في الحياة مدَّعين انهم في حرز حريز مكين ولهذا قيل فيهم : « ما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين »

قالت ام الغرب : علينا ان نتخذ جميع الوسائل التي تمنعنا من الهوي والسقوط من حالق . تلك السُّنَّة سُنة الانحطاط والهبوط الجارية منذ العهد السابق . وهذا ما يمكننا ان نبلغهُ بعزم وحزم وتفكُّر وتدبر لان ليس في هذا الكون من القضاء المبرم والقدر المحتوم شيء معلوم انما خلق الله الكون وسلط على اهلهِ الادواء لكنهُ عيَّن لكل منها دواء . — نعم اننا نرى الامم اللاتينية العنصر تضعف بعض الضعف بجنب العنصر الصكسوني بيد ان ذلك لا يدل على ان ساعة الانحطاط او الهبوط قد آنت او قربت

قالت تلك الامم : ما الذي رفعنا الى هذا العلو ومكَّننا من الاخذ بشعفتهِ ؟ — وما هي الاسباب التي تحملنا على اطلاقها من ايدينا ؟ — هناك مسلكان يحق لنا ان نتحرَّى حلها حتى اذا ظفرنا بهما جرينا نحن ايضاً على اثر اولئك الحاضير الماوير وأعدنا الى نفسنا ما كنَّا عليهِ من السبق واحرزنا مكانتنا الاولى من المجتمع البشري

ان اسباب العظمة والحضارة في امة من الامم كثيرة عديدة . وقد حصرها اغلب الاقدمين في تمكين قوى الجند والدهاء في السياسة . لكن لو تدبروا الامر من جميع وجوهه لعلموا ان الامة تتألف من الافراد وقد يكون الافراد حسني السيرة والسريرة كما قد يكونون سيئيها . وحينئذٍ تكون الامة حسنة او سيئة بحسب ما تتألف من تلك الافراد . قل لي حفظك الله الا تدري ان الذهب الابريز يتألف من دقائق من جنسه ؟ او ليس ذرات الفحم تنشئ الفحم ؟ او يجنى من الشوك عنب ؟ اليس كل ثمر يقطف من الشجر الذي يثمره او هو من جنسه ؟

وعليه اذا حسنت الافراد حسنت العيال او الجماعات . واذا اجتمعت عيال مهذبة في موطن من المواطن تقدمت منها المدينة . ومن تحاشد المدن تتألف الدول والممالك . هذا ولا يكفي للافراد حسن الآداب بل يجب ان يعيشوا متآلفين دائبين في الاعمال المنتظمة لتتولد منها المعيشة المنتظمة التي هي معين الثروة الصادقة . اذاً مسئلة الاقتصاد والتوفير تبين اليوم اصدق سبب لعظمة الامم وسعادتها لا مسئلة الجندية او الحنكة في السياسة

واذا ثبت هذا المبدأ فلننظر الى الاسباب التي مكّنت امم الغرب من الاخذ بناصية مقامها الاقتصادي والاسباب التي ثبتت قدمها فيه . فهذا ما نريد ان نرصد لهُ هذه الاسطر فنقول

كل انسان يولد في العالم ومعهُ قدر من الذكاء والنور والحياة . وهو كنز يشترك فيه جميع الناس ويحق لكل واحد منّا ان ينميهُ ويحسّنهُ او يدعهُ وشأنهُ . فاذا تركهُ وشأنهُ قلّ فيه رويداً رويداً او لكّب بصاحبه عن الطريق السوي القويم . اذاً لا تتقدم حضارة امة من الامم الاّ بتقدم افرادها . ولتقدم الافراد لا يكون الاّ بإنماء ذاك الكنز المشترك وتحسينه . هذا فضلاً عن ان تقدم الافراد هذا مبني على تخريجهم وتدريبهم على هذا الصراط المستقيم الذي يتطلب صرف الجهد الجهيد وافراغ ما في الذرع والوسع والطاقة في هذا الوجه الحسن

واذا كان الغربي قد سبق الشرقي في الاقتصاد والتوفير مع انهُ كان دونهُ قبل اني مئة فهذا يدل على انهُ احسن التصرف بالكنز المشترك واستخرج منهُ قدراً من العمل اعظم مما استخرجهُ منهُ الشرقي او فاقهُ في هذا الخصوص . بينما اخذ اخوهُ الشرقي يتوانى في استثماره . بل ان الغربي نجح في اقناع ابناء قومه في ان خيرهُ وصلاحهُ ونجاحهُ وفائدة

نفسهِ وفرائض حالهِ توجب عليهِ ان يتخذ ذرائع عملهِ وذكائهِ في تحسين حظهِ وحظ اخوانهِ في الوطن . وبالجملة ان الغرب علم احسن العلم ان الانسان هو المحرّك الحقيقي للعمل فإن أُحكم تهذيب الانسان وتحريجهُ ازدادت نتائج عملهِ . قلنا : اذا كان الامر كذلك فاي معاهد شيدت لهذه الغاية وعلى اي مبادئ استند المصلحون والى اي المذاهب ذهبوا لتحقيق هذه الاماني في نفوس المشتغلين والعمّال والصنّاع حتى ظهر هذا التقدم البيّن منذ نحو الفي سنة . وما كان يا ترى قدر سعي الافراد والجماعات والدول في هذا العمل الخطير . وهل ساعد العنصر الدنيوي العنصر الديني وهل اسرع او ثبّط ائتلاف او تنافر هذين المبدأين القويين في سيرهما ؟ وهل الاختلاف في العقائد بين الشرق والغرب يوضح لنا التغيير الذي طرأ على توازن القوى الممدّنة للعالم ؟ — واي تأثير يؤثر الدين في نشوء وارتقاء العمل وفي طاقة افكار العالم اذا ذهبوا في تعليمهم الرسمي الى مذاهب تفضي الى نفي الدين من المجتمع الانساني

فهذه كلها اسئلة يتولد منها اسئلة اخرى وكلها في منتهى الشأن والخطور . ويحسن بالباحث ان يعرضها على بساط نقع عليهِ انوار شمس التنقيب والتفتيش ليبصر ما فيها من الزين والشين اذا اراد ان يقف على الحقائق المقرّرة ويعرف مواردها ومصادرها . — لا جرم اننا اذا عرفناها لا نتأخر عن ان نتتبع آثارها فنصل اليها ونسابق مجاريتا في التزاحم على مشارعها

هذا والجواب عن هذه الاسئلة هو في منتهى اللطافة والدقة بل في غاية الخطر والخطور لانها تستلزم معارف شتى وابحاث دقيقة قد يتيه فيها الدليل الحاذق . — على اننا نفرغ ما في وسعنا سعياً وراء نشد هذه الضالّة ومن افرغ وسعهُ فقد عمل ما في طاقتهِ والله لا يكلف نفساً الاّ طاقتها

ومما نقدّم بيانهُ ترى انهُ لا بد من مطالعة التاريخ والوقوف على اسباب نشوء الامم ورقيها واستبحارها في العمران او انحطاطها وهرمها واضمحلالها . وعلى كلٍّ فان بحثنا هذا وان كان في حال الطفولة فهو لا يخلو من فائدة لمفكّر او متدبر وكفى

امكح